

الوعي بالتاريخ ودراسة المستقبل

د. محمد بريش



أولا

الواقع الحاضر : مستقبل لتاريخ وتأريخ لمستقبل

د. محمد بريش

الواقع الحالي مستقبل لتاريخ مفروض فيه التدوين، وتأريخ لمستقبل هو في طور التكوين.

د. محمد بريش

مستقبلٍ لتاريخٍ بني على حوادث ووقائع، لدينا منها صور ومقاربات، تتجدد بتجدُّد النظر وإمعان النقد في الأحداث الخاليات، وتنامي المتوفر حولها من المعلومات، وتطور ما يحللها ويدرس عناصرها ودوافعها من المنهج والأدوات.

د. محمد بريش

وتاريخ لمستقبل، بني على مشاهد وتوقعات وافتراضات، مشحونة بالرغبات والطموحات، وغير خالية كلية من بعض التنبؤات.
هو تاريخ مؤمل، قد يعانق قاطرة التاريخ المؤجل فنكون قد أحسنا اختيار المآل، وقد لا يوافق سيرها فنكون قد تأهبنا للجديد من الحال.

د. محمد بريش

مستقبل لتاريخ مفروض فيه التدوين

لأن التاريخ صورة حية لحال أمة، تتطور بتطور التاريخ نفسه، وتطور علومه ومناهجه، وحسن الاستفادة من محطات تداوله، ولهذا لزمه التدوين، لاستخلاص العبر، ومراجعة الحركة، وتصويب المسير، وإتقان عمليات البقاء والنماء التي أسها التواصي بالحق والصبر بين الأجيال.



د. محمد بريش

وهذا التدوين المفصل، في حركيته الديناميكية والمتطورة، خزانه وحاضنه هو الذاكرة الجماعية للأمة، ولهذا كان **التاريخ هو الذاكرة**.



د. محمد بريش

وتأريخ لمستقبل هو في طور التكوين

فهناك وقائع تترى على بوابة الحاضر باستمرار، تحمل في طياتها رسائل لمن يريد توقع ما سيتلوها من أحداث أو هزات. فاستقراء الواقع ـ أي الحاضر وتاريخه القريب ـ بإحكام، يسمح بمعرفة التيارات الغالبة أو الجارفة، واكتشاف بعض جينات المستقبلات الممكنة.



د. محمد بريش

١. ومن هنا نستطيع أن نعالج المستقبل عبر النظر الثاقب لأبعاده القادمة، انطلاقا من مخزون الذاكرة، فنحلل الجينات وندرس التيارات وما يترتب عليها من مشاهد غد صادقة الظن.

٢. أو ننتقل إلى واقع مضى ثم نقارن الواقع الحالي، كمستقبل لتاريخ مضى، بما هو ملاحظ الآن ودرجات تطوره، وهذا كذلك نوع من المعالجة في مجال دراسة المستقبل.

د. محمد بريش

د. محمد بريش

ثانيا

الوعي بالتاريخ علم ومنهج

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ " (الحشر: ١٨- ٢٠)

فالناس من منظور صناعة الغد صنفان :

- واعٍ بالتاريخ، مقدِّمٌ لغد،
- وخارجٌ من التاريخ، ناس لله، غافلٌ عن لوازم الإعداد لغد.

المستقبل والقـــــــدر

د. محمد بريش

- النـاسي أو الغافل، أو الملفوظ من التاريخ، يسيء الاحتجاج بالقدر، والواعي مدرك أنه محاطٌ في كل فعله بالقدر، لعلمه أنه هو نفسه جزء من القدر لصناعة المرغوب من القدر، مغالبا الموانع والشدائد من القدر بسنن القدر، ومواجهـا القدر بالقدر.

- فالإيمان بالقضاء والقدر ضروري لمواجهة الصعوبات، والتصدي للتحديات، واقتحام العقبات، وإلا اختلت مسيرة المؤمن على طريق الابتلاء، لكن ثابت الخطى على الحق يدافع القدر بالقدر، فيواجه أتعس الأقدار بأخرى هي من أزكاها وأحسنها.

الفعل التاريـخي ...
يـتجلى في الزّمن والمكان

- فمجـال الفعل التـاريخي والعمل لغد يتحدَّد في دائـرتين متـرابطتين متلاحمتين : الزّمن والمكان.
- أما الزمن فالمستقبل لأنـه مجال الفعل المغيِّر،
- والمكـان العـالم الإسلامي لأنـه كنـه التعبيـر عن ذلـك التغييـر سـلبا أو إيجابـا فـي التاريخ والمستقبل.

فلم يهتز العالم ويصاب بالصواعق والأزمات إلا بخمول في هذا الجسد ـ المكان، ولـن يرقـى لمراتـب العدل والأمـن إلا برقـي ذات الجسـد، فـي المـتقن الصـناعة التاريخية من المقبل والمدبر من الزمان.

د. محمد بريش

د. محمد بريش

على سكة التاريخ، المستقبل قيادة أو انقياد

فالمستقبل إما أن تشارك في صياغته أو يصاغ لك، ولا مجال لإتقان الصنعة وتدقيق الصياغة إلا إذا كنا على قدرة تامة لكتابة وتحليل تاريخنا بأنفسنا، وإلا فسيكتب لنا تاريخنا بغير أدواتنا، ثم يفسر لنا بغير منهجنا ولغتنا، وطبعا لبلوغ مقاصد ليست بالضرورة في صالحنا، حيث نصبح مجرد مستهلكين نتعلل بالقدر، ونعتذر بعدم الاستطاعة، وأنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان، وكنا، وقد نكون، ... ولكن لا قدرة لنا، في غياب الكاتب الدخيل والمفسّر المقتحم، أن نعالج كيف نحن ولا أن ندرك إلى أين المصير.

د. محمد بريش

علاج الواقــــــع ...
يـكمن في الوعي بـتاريـخه،
ودراسة وتـحليل بـدائل مآلاته

فمهما بلغ وضعنا من السلبية، ومهما كان الواقع مرا، لابد وأن ينظر للعلاج بحكمة وتبصر، ونقطة الانطلاق فيه أن **ندرك الأصول**، ومن هنا تأتي دراسة التاريخ وتظهر أهميته، **ونستوعب المقاصد**، ومن هنا يأتي استشراف المستقبل وتبرز أولويته.

ولنا في الأنبياء اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، فهم لم يبعثوا إلى قوم كاملي الأخلاق، أو مجتمع صاف من المشاكل، ثم قيل لهم ادعوا قومكم لخالص الدين، وإنما بعثوا إلى قوم كانوا أحوج الناس إلى رسالة، وأفقر خلق إلى هداية، فذكروهم بمن كان قبلهم، أي بتاريخهم، ودعوهم لإصلاح حالهم عبر التجند لصناعة غدهم، الدنيوي والأخروي.



د. محمد بريش

التاريخ ...
سجل ذو أصل قديم، وامتداد مستقبلي

من منظور مستقبلي، التاريخ سجل أحداث ووقائع يتجذر في أصل قديم، ويمتد إلى أفق بعيد، فالتاريخ من هذا المنظور ليس شيئا ينتهي في الحاضر، أو كلما انتهى دور شيء على سطح الأحداث وولى قلنا بأنه أضحى من التاريخ ولم يعد له وجود.

بل من وجهة نظر المستقبلي، مازال هذا الشيء موجودا وإن غاب عن ساحة الواقع، يستدعي مزيدا من الجمع للمعلومات حول مراحل بزوغه على السطح وانزوائه للخلف، ومزيدا من الدراسة حول أثره ودوره، ومزيدا من التحليل لإمكانية عودة ظهوره.

المستقبل تاريخ لعمليات التواصي بين الأجيال ...

د. محمد بريش



نحن عصارة مستقبل يفقد باستمرار صفته المستقبلية ليصبح جزءا خالصا من التاريخ، فنحن مستقبل آباءنا، ومستقبل أجدادنا، ومستقبل الذين سبقونا، مستقبل التواقين الراغبين في أن تأتي من بعدهم أجيال تخرج الأمة من عهد إلى عهد أحسن وأفضل، مستقبل لا نستطيع قيادته من حيث الوجهة إلا في أفق ما بقي له من مستقبل. لكن ما مضى منه تم على وجهته، لكن تتطور صوره لدينا بتطور الأدوات والمناهج التي تجعله موضوع دراسة وميدان تحليل.

ونحن كذلك مستقبل لتاريخ يتشكل بنزوح ذلك المستقبل عبر بوابة الحاضر لخزان التاريخ، مستقبل ونرغب فيه ونريده لأجيال من بعدنا، مستقبل نستطيع أن نتحكم فيه عبر إمعان النظر في بدائله، وتوجيه حركة حاله إلى البديل الأوفر حظا في تغييره وتطويره.

د. محمد بريش

المستقبل زاد الذاكرة للوعي الجماعي ...

والمستقبلية زاد للوعي الجماعي، وإلا فلا حاجة لها على الإطلاق :

وعي جماعي بأن الأمة معرضة للزوال في حالة عدم تبصر الخطر المحدق بها في كل قرار أو حركة جهة العقبات التي عليها اقتحامها، وإدراك درجة الكوارث المحتملة المانعة من إنجاز المصالح ودرء المفاسد حماية للفرد والمجتمع، وإقامة موازين الحق والعدل التي تتوخاها في مجتمعاتها ومحيطها، على مستوى يتجانس مع طموحاتها والمتوفر لديها من الوسائل داخل دائرة الممكن حالا، وما قد تتسع له أو تضيق به مآلا.

وعي جماعي بانعكاس الخطر على الجميع أفرادا وشعوبا وحكومات ومؤسسات حين غياب الإيمان بضرورة العمل لصناعة الغد المشرق من خلال تعزيز الموجود وإيجاد المفقود من المصالح، والحرص على درء كافة الأخطار والمفاسد المهددة للبقاء.

فإنعاش الذاكرة الجماعية هو الهدف الأساس من المستقبلية، وأس ذلك الإيمان والعمل، ومحاربة التآكل المعرفي، والحيلولة دون تآكل الذاكرة، هما المقصد الأسمى من الاهتمام بعلوم المستقبل ، وأس ذلك العلم والتواصي بالثبات على الحق، والصبر على مواصلة السير، لبلوغ الأهداف المرسومة لازدهار الأمة ودوام السؤدد لها.



أنواع المستقبلية

نوع يمكن تسميته بـ "المستقبلية التراجعية" يقاوم الحاضر بتبرير الماضي عوضا عن ابتكار المستقبل.

نوع يمكن نعته بـ "المستقبلية التخديرية" يلجا إليه بعض الساسة ومن في فلكهم حينما يصبح الواقع لا يطاق لتبرير هروبهم إلى الأمام، وفرارهم من معالجة الحاضر، من خلال سيل من التمني بعهود قادمة من الرخاء، بوابل قراراتهم وتصرفاتهم، دون العمل قيد شبر استعدادا للوفاء بتعهداتهم.

نوع يمكن أن نصفه بـ "المستقبلية الاحتكارية" حين يكون على المستوى الدولي، أو بـ "المستقبلية الانتهازية" حين يكون على المستوى الوطني، يعتمد أسلوب التأثير على الحركات الفكرية في حصر الأولوية لفائدة تصوراته المستقبلية، دون أخذ رأي المعنيين بالأمر، أو استقراء رغباتهم وتطلعاتهم.

مضمون المستقبلية

د. محمد بريش



المستقبلية في منهجها السليم تقتضي نظرتين متكاملتين : نظرة إلى الأفق البعيد، ونظرة إلى الحاضر من بعيد.

نظرة إلى الأفق البعيد لتكهن مآلات القرارات المتخذة الآن، ليس بقصد استغراق الذهن في التحديد الدقيق لتفاصيل مضمونها، ولا الاستمتاع ببراعة تخيل أشكالها، ولكن بهدف معرفة مجال المراجعة حافرا، وفسحة إمكانية المبادرة حالا، لتغيير المسار نحو الأفضل، وتوجيه الواقع نحو الأمثل.

وتلك نظرة تقتضي بدورها كشف الجينات المولدة للاتجاهات الثقيلة التي تجر الأحداث بجاذبيتها، وتشد الواقع والوقائع تحت مفعولها، وهو أمر صعب دون نظرة أخرى من بعيد للواقع المدروس، نظرة تنطلق من زمن موغل في التاريخ بشكل كاف لاستيعاب المسار التاريخي للأحداث وفقه أشكال تطوره، ومعرفة غلبة الصورة منه التي تحققت على صور أخرى لم يكتب لها أن ترى النور، وإن كانت لها حظوظ افتراض الوقوع.

فالمستقبلية من منظور علمي، لا تنطلق كما يتبادر للذهن من السؤال : ماذا سيقع من الحوادث في المستقبل؟ فذلك نوع من الكهانة لا يمارسه إلا مدع معرفته بالغيب. ولكن تنطلق أساسا من السؤال : كيف يقع في المستقبل القريب ما أريد بإذن من الله وتأييد منه؟ وما العقبات في وجهه؟ وما العوامل المساعدة على حصوله؟ وما عساني أفعله لو تعطلت خطاي، وسبقني المنافسون لصناعة المستقبل على شاكلتهم، بحيث تكون سنة تداول الأيام لصالحهم؟ تلك هي المستقبلية من وجهة نظر علمية، ومن منطلق إسلامي رصين.



د. محمد بريش

ثالثا

مراحل البناء المستقبلي في ضوء التاريخ

د. محمد بريش

د. محمد بريش



أ. الاستيعـاب الواعي للماضـي :

ذلك أن استيعاب الماضي ووعي حركته التاريخية ضروري لفهم الواقع الحاضر أيا كان موضوع الدراسة والتحليل، لأننا من خلال فهم آليات ومحرِّكات الواقع الراحل، والمتابعة الدّقيقة لمساره التاريخي، سنتمكن لا محالة من إدراك جزء كبير من شكل وصور مختلف التطوُّرات التي خضعت لها الجاليات والمجتمعات الإسلامية بأوروبا عبر تطورها التاريخي، سواء على الصعيد السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الفكري، أو الثقافي، أو التربوي.

كما ستسمح لنا متابعتنا المتبصّرة لتطوُّرات الماضي القريب اللَّصيق بالحاضر - والذي تعمدنا تسميته بالواقع الراحل حتى يبقى لصيقا بأذهاننا أنه جزء غير منفصل عن الواقع الحالي - بكشف الجَيْنات التي ساهمت بشكل أساسي في انبثاق الواقع المشهود لهذه الجاليات والمجتمعات، والتي بزغت عبر مراحل نموها في شكل عوامل فاعلة ومحركة في تعزيز وتقوية جوانب العمل لدى الجاليات والمجتمعات المسلمة الأوروبية في عمليات التدافع الحضاري والحوار الفكري والبناء الاجتماعي جنب المجموعات الأخرى التي تشاركها الانتماء القومي والأداء الحضاري الوطني.

ودقّة المتابعة تحتاج إلى إعمال الوعي في فهم وقائع التاريخ، وخاصة منه التاريخ القريب، وإخضاعه لشروط الفنون التوثيقية، وتحاليل الدراسات النقدية، ومناهج العلوم الاجتماعية، حرصا على تحقيق وقائعه، وتدقيق صحّة أحداثه، وحسن استنباط الدروس والعبر من مضامينه، وتقويم مناهج المراجعة وبرامج المعالجة عملا وفكرا لتطويره وتغييره.



ب ـ الاستقراء الشمولي للواقع :

وإصلاح الواقع يمر حتما عبر فهم شكله ومضمونه، وتمييز ثابته عن متحركه، وحديثه عن قديمه، وقويه عن ضعيفه، وظرفيه عن متواصله. والعلة في استقراء الوقائع، وتبيّن تضاريس مختلف الخرائط فكرا وثقافة ومنهجا، عطاء وأخذا، تمليها عند رجال وخبراء العمل الاستراتيجي الرغبة أساسا في إعمال التغيير فيه، ليُنتقل به إلى وضع أحسن وأمثل. وهو أمر يحتاج إلى أدوات جمع للمعلومات ضخمة، وأدوات تحليل ونقد قويّة ودقيقة، وأصناف من المعطيات والكشوفات متنوعة، ودراسات وبحوث شتى في مختلف التخصّصات، نذكر منها مثلا :

دراسة التيّارات الفكرية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية السائدة في الوسط المدروس، وخاصة منها صاحبة الفعل الملموس في الواقع المشهود.

إجراء الدراسات الميدانية المختلفة في ميادين العلوم الاجتماعية والسلوكية، ومتابعة المنجز منها من طرف مختلف الجهات والمؤسسات والمدارس الفكرية والمذهبية المتنوعة.

تشخيص الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والتربوي، محليا وجهويا وعالميا.

د. محمد بريش

ج ـ الاستشراف المحكم للمستقبل :

ويبقى ما نسعى أساسا لنخلص إليه من العنصرين السابقين هو إجلاء أوجه الشبه بين الماضي والحاضر، وربط مسار تطور الأول بالآخر، حتى نكون على وعي بالجينات، وإدراك لمختلف التيارات والتوجُّهات، والتمكّن على بصيرة من تكهُّن صور محتملة الشهود للمستقبل، لا نقصد من ورائها ادعاء علم بالغيب، ولكن نصبو من خلال تفصيل مشاهدها إلى شحن الحوافز، واستكمال العدّة، وإيقاظ الهمم، واستنفار جميع الطاقات المستجمعة، عبر عمل استراتيجي ممنهج.